تاسعاً
سورة التَّحْرِيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾
وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ
بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ
ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ
ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ
رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ
عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ
نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ
أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ
مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ
رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ
لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ
يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ

ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

بين يَدَيِ التّفسير

(١)

((فَرَضَ الله تعالى علينا كفّارةَ الأَيْمان ، وإن يَتَعاوَنْ على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم زوجتاه فالله تعالى هو مولاه وجبريل والملائكة وصالح المؤمنين))

الآيات (١-٥)

يا أيّها النّبيّ الكريم ، والرّسول العظيم لماذا تُحَرِّمُ ما أحلّ الله تعالى لك ، تبتغي مرضاة زوجاتك بتحريم شرب العَسَل الّذي كنت تشربه في بيت أمّ المؤمنين زينب بن جحش رضي الله تعالى عنها ، أو بِتَحْرِيم أمّ ولدك إبراهيم مارية القبطيّة . والله سبحانه وتعالى غفورٌ ذَنْبَ من استغفره ، رحيمٌ به أن يعذّبه بعد أن قبل توبته . قد فرض الله تعالى عليكم أيّها المؤمنون كفّارة أيمانكم إذا حَنِثْتُمْ وهي ﴿ إطعامُ عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيّام ﴾[1] وكفّارة اليمين على التّخيير لذا كان ثمّة تدرّجٌ وتحوّلٌ من السّهل إلى الصّعب[2] والله سبحانه وتعالى متولّي أموركم وراعي مصالحكم . وهو العليم الذي لا يخفى عليه شيء ، الحكيم في أحكامه وفي كلّ شيءٍ سبحانه .

واذكر إذ أسرّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى إحدى زوجاته وهي أمّ المؤمنين حفصة رضي الله تعالى عنها بشأن ما حرّم صلّى الله عليه وسلّم على نفسه وطلب منها أن لا تخبر أحداً فلم تفعل بل أَفْشَت السّرّ لأمّ المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها .

---

(١) سورة المائدة ٨٩ .

(٢) التّفسير البسيط ٧/ ٢٢ .

فلمّا نبّأت حفصة رضي الله تعالى عنها عائشة رضي الله تعالى عنها ، وأظهره الله تعالى عليه وأعلمه بكشف السّرّ عرّف النّبي صلّى الله عليه وسلّم حفصة بعض ما كشفت من سرّ ، وأعرض عن ذكر البعض الآخر تَعَفُّفاً وسُمُّوا. فلمّا نبّأها بالسّرّ الّذي كشفته قالت : من أنبأك هذا ، ظنّاً منها أنّ عائشة رضي الله تعالى عنها هي الّتي كشفت السّرّ. قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : نبّأني العليم الخبير الّذي يستوي عنده علم الظّاهر والباطن معاً .

إن تتوبا يا عائشة ويا حفصة ، يقبل الله تعالى توبتكما ، فقد مالت قلوبكما إلى محبّة ما يكرهه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وإن تظاهرا عليه وتتعاونا يجد ناصراً ينصره، فإنّ الله تعالى هو مولاه وجبريل عليه السّلام ، والملائكة الكرام ، وصالح المؤمنين كأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

عَسَى ربّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم ربّ العالمين إن طلّقكنّ محمّدٌ صلّى الله عليه وسلّم أن يبدله جلّ وعلا زوجاتٍ خيراً منكنّ مسلماتٍ ، مؤمناتٍ ، طائعاتٍ لله تعالى ، تائباتٍ ، عابداتٍ ، صائماتٍ ، ثيّباتٍ وأبكاراً .

(٢)

((يوم القيامة لا يُخْزِي الله تعالى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين ، وعذاب الكافرين والمنافقين شديد))

الآيات (٦-٩)

تبيّن في القِسْم السّابق أنّ بيت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يرعاه الله تعالى لأنّ محمّداً صلّى الله عليه وسلّم راعِيَ ذلك البيت هو الأسوة الحسنة للمسلمين . إنّ ربّ العزّة والجلال يعاتب محمّداً صلّى الله عليه وسلّم لأنّه حرّم بعض ما أحلّ الله تعالى له ابتغاء

مرضاة بعض الزّوجات. وحينما تظاهر بعض الزّوجات على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان من الحقّ جلّ وعلا تهديدٌ لهنّ إن لم يتبن إلى الله تعالى توبةً نصوحاً بأن يُبْدِلَ رسوله صلّى الله عليه وسلّم زوجاتٍ خيراً منهنّ . وكلّ هذه المعاني دليلٌ على أهمّيّة الأسرة في الإسلام ، لأنّها النّواة الأولى للمجتمع والأمّة . وإنّ هذا القِسْمَ الثّانِيَ يتحدّث في هذه المعاني من زاويتي التّرهيب والترغيب ، والحديث عن النّار والجنّة .

يا أيّها الّذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم بعمل الصّالحات ناراً وقودها الكافرون والأصنام المصنوعة من الحجارة فكيف بما يقلّ عن الحجارة قدرةً على مقاومة النّار . وعلى النّار خَزَنَتُها من الملائكة الغِلاظِ القلوب والأكباد ، الشّداد الانتقام والبطش . إنّهم مفردو الإرادة يعرفون الخير وَحْدَه لا يعصون الله تعالى ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ويقال للكافرين الّذين في النّار : لا تعتذروا اليوم إنّما تُجْزَوْن عقاب ما كنتم تعملون في الدّنيا .

وأنتم أيّها المؤمنون ، توبوا إلى الله تعالى توبةً صادقة . عسى ربّكم ، بعد التّوبة النّصوح ، أن يكفّر عنكم سيّئاتكم ويدخلكم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار يوم لا يُخْزِي الله تعالى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والّذين آمنوا معه ، بل يكرمهم ، ويُعْلِي قدرهم ، ويرفع شأنهم . نور المؤمنين يَسْعَى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربّنا أتمم لنا نورنا ولا تطفئه كما طفأت نور المنافقين ، واغفر لنا ذنوبنا إنّك على كلّ شيءٍ قدير .

وأنت أيّها الرّسول الكريم ، والنّبيّ العظيم ، وراعي الأسرة الكبير ، والأسوة الحسنة للمؤمنين ، في أثناء بنائك لكلٍّ من المجتمع المسلم والدّولة المسلمة على البرّ والتّقوى

والخلق العظيم جاهد الكافرين بالسّيف والسّنان ، والمنافقين بالحجّة والبيان ، واغلظ عليهم أجمعين ، ومأواهم جهنّم . وبئس المصير والمثوى جهنّم .

(٣)

((لا ينفع الكافرين يوم القيامة معاشرة المؤمنين لهم في الدّنيا ، ولا يضرّ المؤمنين معاشرة الكافرين لهم))

الآيات (١٠-١٢)

وكما كان في أوّل السّورة الكريمة حديثٌ عن زوجتين للنّبيّ صلّى الله عليه من زاوية التّوجيه لهما والإرشاد ، والتوجيه والإرشاد وراء ذلك لأمّهات المؤمنين جميعاً ، ولبيت النّبوّة عموما ، وكان في القسم الثّاني نوعٌ من الاهتمام بالأسرة ورعايتها ، كان في نهاية السّورة الكريمة والقِسْم الأخير منها عَوْدَةٌ إلى الأسرة ، وعنايةٌ بها ، وتنبيهٌ إلى أنّ الكافرين لن ينفعهم يوم القيامة معاشرة المؤمنين لهم في الدّنيا ، ولن يضرّ المؤمنين معاشرة الكافرين لهم . لقد كان الحديث يدور عن اثنتين من الكافرات ، واثنتين من المؤمنات . وإنّ الحديث عن الاثنتين هنا يذكّر بالحديث أوّل السّورة عن الزّوجتين اللّتين تظاهرتا على النّبي صلّى الله عليه وسلّم . إنّ للثّنائيّة دورها في سورة التّحريم المدنيّة الكريمة .

ضَرَبَ الله تعالى مَثَلاً للّذين كفروا الّذين لن ينفعهم يوم القيامة معاشرة المؤمنين لهم في الدّنيا ، امرأة نوح وامرأة لوطٍ عليهما الصّلاة والسّلام . لقد خانت كلّ من الزّوجتين زوجها بالكفر بالله تعالى فكانت الأولى تزعم أنّه مجنون ، ومن الأدلة على ذلك –حسب زعمها – أنّه يبني سفينةً في البَرّ ، وكانت الأخرى تدلّ على ضيوف زوجها قومها الّذين

كانوا يَعْلُون الذّكور . إنّ معاشرة الزّوجتين زوجيهما النّبيّين الكريمين لم تنفعهما شيئاً ولم تدفع عنهما من عذاب الله تعالى شيئاً حينما أُمِرَتا بأن تدخلا النّار مع الدّاخلين .

وضَرَبَ الله تعالى مثلاً للّذين آمنوا الّذين لن يضرّهم يوم القيامة معاشرتهم للكافرين بالضرورة في الدّنيا امرأة فرعون ومريم ابنة عمران . إن امرأة فرعون الطّاغية الّذي سام امرأته الخسف لإيمانها بموسى عليه السّلام واتّباعها الـهُدَى تسأل الله تعالى أن يبني لها عنده جلّ وعلا بيتاً في الجنّة ، وأن ينجّيها من بطش فرعون، وعمله السّيّء ، وأن ينجّيها من القوم الظالمين . أمّا مريم ابنة عمران أمّ عيسى عليه الصّلاة والسّلام فإنّها صانت فرجها فنفخ الله تعالى فيه من روحه عزّ وجلّ بواسطة جبريل عليه السّلام الّذي نَفَخَ في جَيْبِ دِرْعِها فَحَمَلَت بعيسى عليه السّلام كلمة الله تعالى وصَدَّقَتْ بكلمات ربّها جل وعلا وشرائعه وكتبه السّماويّة وكانت من الطّائعين لله تعالى .

التَّفْسير

(١)

((فَرَضَ الله تعالى علينا كفّارة اليمين ، وإن يَتَعاوَنْ على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم زوجتاه فالله تعالى هو مولاه وجبريل والملائكة وصالح المؤمنين))

الآيات (١- ٥)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١﴾ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ ۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡ ۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ

أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

سبب النّزول :

جاء في سبب النّزول كلامٌ كثيرٌ وروايات متعدّدة واجتهاداتٌ مختلفة للعلماء . وتعود الرّوايات في مجموعها إلى أنّ الآيات الكريمات نزلت في تحريم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ما أحلّ الله تعالى له يبتغي مرضاة زوجاته رضوان الله تعالى عليهنّ فعاتبه الله تعالى في ذلك . وهذا الّذي حرّمه عليه الصّلاة والسّلام على نفسه وحَلَفَ على تَحْرِيمِهِ شُرْبُ العسل أو جارِيَتُه أُمُّ إبراهيم مارية القبطيَّة . وإليك بَعْضَ ذلك .

رَوَى البخاريّ في صحيحه[1] عن عائشة ﵂ قالت : كان رسول الله صلّى الله عيه وسلّم يَشْرَبُ عَسَلاً عند زينب ابنة جحش ويمكث عندها . فواطَأْتُ أنا

---

(١) فتح الباري ٨/ ٦٥٦ حديث رقم ٤٩١٢ وانظر ١١/ ٥٧٤ حديث رقم ٦٦٩١ .

وحَفْصَةُ عن أيَّتُنا دخل عليها فَلْتَقُل لَهُ[1] أَكَلْتَ مَغافِير؟ إنّي أجد منك رِيحَ مغافِير[2] . قال: لا ، ولكنّي أشرب عَسَلاً عند زينب ابنة جحش فلن أعود له ، وقد حَلَفْتُ فلا تُخْبِرِي بذلك أحداً أ . هـ

ورَوَى البخاريّ في صحيحه[٣] أنّ ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : مكثت سنةً أريد أن أسأل عمر بن الخطّاب عن آيةٍ فما أستطيع أن أسأله هيبةً له . حتّى خرج حاجّاً فخرجت معه . فلمّا رَجَعْتُ وكنّا ببعض الطّريق عدل إلى الأراك[٤] لِحاجةٍ له . قال : فوقفت له حتّى فرغ ثمّ سِرْت معه فقلت له : يا أمير المؤمنين من اللّتان تظاهرتا على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من أزواجه فقال حَفْصة وعائشة ..... الحديث .

ورَوَى البخاريّ في صحيحه[٥] عن عائشة قالت : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يحبّ الحَلْواء ويحبّ العَسَل . وكان إذا صلّى العصر أجاز على نسائه[٦] فيدنو منهنّ[٧] فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر ممّا كان يَحْتَبِس. فسألت عن ذلك فقيل لي :

---

(١) على سبيل الاستفهام وأردن التّعريض انظر فتح الباري ١٢/ ٣٤٤.
(٢) المغافير جمع مغفور بضمّ الميم صمغ حلوٌ له رائحةٌ كريهة فتح ٩/ ٣٧٧ .
(٣) فتح الباري ٨/ ٦٥٧ حديث رقم ٤٩١٣ وانظر ٦٥٩ حديث رقم ٤٩١٥ و ٣٧٤/٩ حديث رقم ٥٢٦٧ و ١١/ ٥٧٤ حديث رقم ٦٦٩١ وصحيح مسلم ١١٠٨ حديث رقم ٤٩١٣ .
(٤) الأراك : شجرة طويلة خضراء ناعمة كثيرة الورق والأغصان خوّارة العود يستاك بفروعها صحيح مسلم ١١٠٨ هامش رقم ٢ وجاء في فتح الباري ٨/ ٦٥٩ حديث رقم ٤٩١٥ : "فلمّا كنّا بظَهْران" وهو وادٍ قرب مكّة وعنده قرية يقال لها مَرّ تضاف إلى هذا الوادي فيقال مرّ الظّهران . معجم البلدان :الظّهران . ويسمّى وادي فاطمة حاليّاً .
(٥) فتح الباري ١٢/ ٣٤٣ حديث رقم ٦٩٧٢ و ٩/ ٣٧٤ حديث رقم ٥٢٦٨ وانظر صحيح مسلم ١١٠١ حديث رقم ١٤٧٤ .
(٦) أجاز على نسائه : مرّ أو سلك فتح ١٢/ ٣٤٤ .
(٧) فيدنو منهنّ : فيقبّل ويباشر من غير جماع . فتح ٩/ ٣٧٩ و ٣٨٠ .

أهْدَتْ لها امرأةٌ من قومها عُكّة[١] عَسَل فَسَقَتْ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم منه شَرْبة. فقلت : أما والله لنحتالنّ له[٢] فذكرت ذلك لِسَوْدَةَ وقلت لها : إذا دخل عليك فإنّه سيدنو منك فقولي له : يا رسول الله أَكَلْتَ مَغافِير؟ فإنّه سيقول لا . فقولي له ما

هذه الرّيح؟ وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يشتدّ عليه أن يوجد منه الرّيح[٣] فإنّه سيقول : سَقَتْنِي حفصة شَرْبة عسل . فَقُولِي له : جَرَسَتْ نَحْلُه العُرْفُط[٤] وسأقول ذلك ، وقوليه أنت يا صفيّة[٥] فلمّا دخل على سَوْدَة قلت –تقول سَوْدَة– والّذي لا إله إلاّ هو لقد كدت أن أبادئه[٦] بالّذي قلتِ لي وإنّه لعلى الباب فَرَقاً منك[٧] فلمّا دنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قلت له : يا رسول الله أكلت مَغافِير؟ قال : لا . قلت فما هذه الرّيح ؟ قال : سقتني حَفْصَةُ شَرْبَة عَسَل . قلت : جَرَسَت نَحْلُهُ العُرْفُط . فلمّا دخل عليّ[٨] قلت له مثل ذلك . ودخل على صفيّة[٩] فقالت له مثل ذلك . فلمّا دخل

---

(١) العُكّة بضمّ العين القربة الصّغيرة . صحيح مسلم ١١٠١ هامش ٤ .

(٢) أي لنطلبنّ له الحيلة ، وهي الحذق في تدبير الأمور وتقليب الفكر حتّى يهتدى إلى المقصود . صحيح مسلم ١١٠٢ هامش ١

(٣) لأنّه يأتيه الملك . فتح ٩/ ٣٧٩ .

(٤) أي رعت نحل هذا العسل الّذي شربته . ويقال للنّحل جوارس . والعُرْفُط شجر ينضح الصّمغ المعروف بالمغافير صحيح مسلم ١١٠٢ هامش ٣ .

(٥) بنت حُيَيّ أمّ المؤمنين فتح ٩/ ٣٧٩ .

(٦) أبادئه أي أبدأه وأناديه وهو لدى الباب صحيح مسلم ١١٠٢ هامش ٤ وانظر فتح ٩/ ٣٨٠ وكانت سودة كالتّابعة لعائشة ، ولهذا وَهَبَتْ يومها لها فتح ٩/ ٣٧٧ .

(٧) فرقاً منك : خوفاً منك فتح ٩/ ٣٨٠ وخوفاً من لومك صحيح مسلم ١١٠٢ هامش ٥ .

(٨) رواية الحديث ٥٢٦٨ فتح ٩/ ٣٧٥ : "فلمّا دار إليّ"

(٩) رواية الحديث ٥٢٦٨ فتح ٩/ ٣٧٥ : "فلمّا دار إلى صفيّة"

على حفصة[١] قالت له : يا رسول الله ألا أسقيك منه ؟ قال : لا حاجة لي به . قالت تقول سودة : سبحان الله لقد حَرَمْناه[٢] قالت : قلت لها اسكتي[٣]

وَرَوَى الطّبريّ[٤] في سبب نزول الآيتين الكريمتين الأوليين عن ابن عبّاس قال : كانت حفصة وعائشة متحابّتين وكانتا زوجتي النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم . فَذَهَبَتْ حفصة إلى أبيها فتحدّثت عنده فأرسل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى جاريته[٥] فظلّت معه في بيت حفصة ، وكان اليوم الّذي يأتي فيه عائشة . فَرَجَعَتْ حَفْصَةُ فَوَجَدَتْهُما في بيتها فجعلت تنتظر خروجها وغارَتْ غَيْرَةً شديدة . فأخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جاريته ، ودخلت حفصة فقالت : قد رأيت من كان عندك ، والله لقد سئتني . فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : والله لأرضينّك فإنّي مسرٌّ إليك سرّاً فاحفظيه. قالت ماهو. قال : إنّي أشهدك أنّ سُرّيّتي[٦] هذه عليّ حرام رضاً لك . وكانت حفصة وعائشة تظاهران على نساء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم . فانطلقت حفصة إلى عائشة فأسرّت إليها أن أبشري إنّ النّبي صلّى الله عليه وسلّم قد حرّم عليه فتاته . فلمّا أخبرت بسرّ النّبي صلّى الله عليه وسلّم أظهر الله عزّ وجلّ النّبي صلّى الله عليه وسلّم عليه ، فأنزل الله على رسوله لمّا تظاهرتا عليه : ﴿ يا أيّها النّبيّ لِمَ تحرّم ما أحلّ الله لك تبتغي مرضاة أزواجك ﴾ إلى قوله : ﴿ وهو العليم الحكيم ﴾ وقيل : نزلت في هذه المناسبة

(١) رواية الحديث ٥٢٦٨ فتح ٩/ ٣٧٥ : "فلمّا دار إلى حفصة" أي في اليوم الثّاني . فتح ٩/٣٨٠ .
(٢) أي منعناه منه . صحيح مسلم ١١٠٢ هامش ٦ وفتح ٩/ ٣٨٠ .
(٣) كأنّها خشيت أن يفشو ذلك فيظهر ما دبّرته من كيدها لحفصة . فتح ٩/ ٣٨٠ .
(٤) تفسير الطّبري ٢٨/ ١٠١ .
(٥) هي أمّ إبراهيم مارية القبطيّة تفسير الطّبري ٢٨/ ١٠٢ .
(٦) السُّرِّيَّة بضمّ السّين وكسر الرّاء وفتح الياء المشدّدتين . يقال : تسرّى الجارية أصله تسرّر من السّرور . انظر اللسان "سرا "

الآيات كلّها ، فبلغنا أنّ نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم كفّر يمينه وأصاب جاريته[١].

وقد نَصَّ البخاريّ[٢] على أنّه نزل في شأن تحريم العسل قوله تعالى : ﴿ يا أيّها النّبي لم تحرّم ما أحلّ الله لك ﴾ ﴿إن تتوبا إلى الله ﴾ لعائشة وحفصة ﴿ وإذ أسرّ النّبيّ إلى بعض أزواجه حديثاً ﴾ لقوله بل شربت عسلا .

ورَوَى البخاريّ[٣] حديثاً عن عمر بن الخطّاب بشأن نزول الآية الكريمة الخامسة من سورة التحريم . قال تعالى : ﴿ عسى ربّه إن طلّقكنّ أن يبدله أزواجاً خيراً منكنّ مسلماتٍ مؤمناتٍ قانتاتٍ تائباتٍ عابداتٍ سائحاتٍ ثيّباتٍ وأبكاراً ﴾ وذلك تحت الباب الّذي عنوانه هذه الآية الكريمة ، وهي من موافقات عمر رضي الله تعالى عنه . وكذلك رواه الإمام مسلم مطوَّلاً[٤] تحت عنوان : بابٌ في الإيلاء واعتزال النّساء وتخييرهنّ وقوله تعالى : ﴿ وإن تظاهرا عليه ﴾ وممّا جاء في الحديث[٥] : قال[٦] وَدَخَلْت عليه حين دَخَلْت وأنا أرَى في وجهه الغضب ، فقلت يا رسول الله ، ما يَشُقُّ عليك من شأن النّساء ؟ فإن كنت طلّقتهنّ فإنّ الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك . وقلّما تكلّمت ، وأحمد الله ، بكلامٍ إلاّ رجوت أن يكون الله يصدِّق قولي الّذي أقول . ونزلت هذه الآية آية التّخيير : ﴿ عسى ربّه إن طلّقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكنّ ﴾ : ﴿وإن تظاهرا عليه فإنّ الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين . والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ الحديث .

---

(١) تفسير الطّبري ٢٨/ ١٠٢ .
(٢) فتح الباري ٩/ ٣٧٤ حديث رقم ٥٢٦٧ و ١١/ ٥٧٤ حديث رقم ٦٦٩١ .
(٣) فتح الباري ٨/ ٦٦٠ حديث رقم ٤٩١٦ .
(٤) صحيح مسلم ١١٠٥ حديث رقم ١٤٧٩ .
(٥) صحيح مسلم ١١٠٧ .
(٦) عمر ﷺ .

وكان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد أَقْسَمَ أن لا يدخل على نسائه شهراً ، واعتزلهنّ تسعاً وعشرين ليلة ، فأنزل الله تبارك وتعالى الآية الكريمة الأولى من سورة التّحريم[١] وجاء في الحديث الّذي رواه مسلم في صحيحه[٢] ما يفيد أنّ هذا الاعتزال بمناسبة سؤال زوجاته صلّى الله عليه وسلّم النَّفَقَة . وقد نزل عليه صلّى الله عليه وسلّم بعد اعتزاله لهنّ شهراً أو تسعاً وعشرين الآيتان الكريمتان الثامنة والعشرون والتّاسعة والعشرون من سورة الأحزاب المدنيّة الكريمة .

تحلّة أيمانكم : ما تنحلّ به عقدة أيمانكم من الكفّارة[٣] وتحليلها بالكفّارة المذكورة في الآية الكريمة التّاسعة والثّمانين من سورة المائدة[٤] .

والله مولاكم : يتولاّكم بنصره أيّها المؤمنون[٥] .

فقد صَغَتْ قلوبكما : فقد مالت قلوبكما إلى محبّة ما كرهه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من اجتنابه جاريته وتحريمها على نفسه أو تحريم ما كان له حلالاً ممّا حرّمه على نفسه بسبب حفصة[٦] وسَرَّكُما ذلك مع كراهة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم له وذلك ذنب[٧]وجواب الشّرط محذوف أي إن تتوبا إلى الله لأنّكما قد ملتما مع نفسيكما يقبل

---

(١) أسباب النّزول ٥٠٤ والاعتزال بسبب إفشاء حفصة لعائشة رضي الله تعالى عنهما سرّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم .
(٢) ١١٠٥ حديث رقم ١٤٧٨ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : "حلّ" ١/ ١٧٠ .
(٤) الجلالين وتفسير القرطبي ٦٦٦٤ .
(٥) تفسير الطّبري ٢٨/ ١٠٣ .
(٦) تفسير الطّبري ٢٨/ ١٠٤ .
(٧) الجلالين .

منكما التّوبة[1] .

وإن تظاهرا عليه : عائشة وحفصة رضي الله تعالى عنهما[2] وإن تتظاهرا عليه وتتعاونا[3] وجواب الشّرط محذوفٌ تقديره يجد ناصراً ينصره[4] .

فإنّ الله هو مولاه : ناصره[5]

وصالح المؤمنين : أبو بكر وعمر[6] وعثمان وعليّ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين[7]

والملائكة بعد ذلك ظهير : والملائكة مع جبريل وصالح المؤمنين لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أعوانٌ على من آذاه وأراد مَساءَتَه . والظّهير في هذا الموضع بلفظ واحد في معنى جمع[8]

عسى ربّه : عسى من الله موجبة[9]

سائحات : صائمات[10] وقيل مهاجرات[11]

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢/ ٤٠٨ والجلالين .
(٢) تفسير الطّبري ٢٨/ ١٠٤ .
(٣) الجلالين ومفردات الرّاغب الأصفهاني : "ظهر" ٢/ ٤١٣ والمحرّر الوجيز ١٦/ ٥١ .
(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢/ ٤٠٨ .
(٥) تفسير الطّبري ٢٨/ ١٠٥ .
(٦) تفسير الطّبري ٢٨/ ١٠٥ .
(٧) تفسير ابن كثير ٨/ ١٩٢ .
(٨) تفسير الطّبري ٢٨/ ١٠٥ .
(٩) تفسير ابن كثير ٨/ ١٩٧ في تفسير الآية الكريمة الثّامنة .
(١٠) تفسير الطّبري ٢٨/ ١٠٦ .
(١١) تفسير الطّبري ٢٨/ ١٠٦ .

يا أيّها النّبيّ الكريم والرّسول العظيم لِمَ تحرّم على نفسك ما أحلّ الله تعالى لك من العَسَل أو الفتاة الّتي هي أمّ إبراهيم مارية القبطيّة ، تبتغي بذلك التّحريم مرضاة زوجاتك، وبخاصّةٍ عائشة وحفصة رضوان الله تعالى عليهما . والله تعالى غفورٌ ذنب من سأله المغفرة ، رحيمٌ أن يعذّبه بعد أن غفر ذنبه ، وقبل توبته .

قد فرض الله تعالى لكم أيّها النّبيّ الكريم وأيّها المؤمنون الكفّارة الّتي تنحلّ بها عقدة أيمانكم إذا حَنِثْتم في أيمانكم ولم تبرّوا فيها . لقد تبيّنت الكفّارة حال الحِنْث في اليمين في الآية الكريمة التّاسعة والثّمانين من سورة المائدة . قال عزّ من قائل : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللّغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الأيمان فكفّارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تُطْعِمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيّام . ذلك كفّارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم . كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلّكم تشكرون ﴾ .

والله تعالى مولاكم وناصركم يا أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم . وهو عزّ وجلّ العليم الّذي لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء كما لا يخفى عليه ما يصلح به حالكم من أحكام ، الحكيم في صنعه وتقديره وتدبيره وفي كلّ شيء .

واذكر إذ أسرّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى بعض أزواجه ، هي حفصة رضي الله تعالى عنها ، حديثًا وهو تحريمه صلّى الله عله وسلّم على نفسه الشّريفة أمّ ولده إبراهيم مارية القبطيّة ، أو العسل الّذي كان يشربه عليه الصّلاة والسّلام في بيت زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها ، فلمّا نبّأت به وكَشَفَتْ عنه وأذاعت سرّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لعائشة رضي الله تعالى عنها ، وأظهره الله تعالى عليه ، وبيّن له إذاعة حفصة

السّرّ لعائشة رضي الله تعالى عنهما ، عرّف النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعضه لحفصة ، وأعرض عن بعضٍ تعفّفاً ، وسكت عن بعض ما عرّفه الله تعالى عليه ، دليلاً على خلقه العظيم ونفسه الكبيرة عليه صلوات الله تعالى وسلامه . فلمّا نبّأ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حفصة بما أوحى الله تعالى به إليه قالت مُنْزَعِجَة : من أنبأك هذا ! ظنّاً منها أنّ عائشة رضي الله تعالى عنها هي الّتي أنبأته . قال المصطفى صلّى الله عليه وسلّم : نبّأني الله تعالى العليم الّذي لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء ، الخبير العليم ببواطن الأمور كظواهرها .

إن تتوبا إلى الله تعالى يا عائشة ويا حفصة ، وقد مالت قلوبكما إلى محبّة ما كرهه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من تحريم مارية أو العسل، فإنّ الله تعالى يقبل توبتكما . ونستطيع أن نفهم أنّهما رضوان الله تعالى عليهما قد تابتا إلى الله تعالى . إنّهما رضوان الله تعالى عليهما مع بقيّة زوجاته عليه الصّلاة والسّلام رضوان الله تعالى عليهنّ أجمعين قد اخترن الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلّم والدّار الآخرة على الحياة الدّنيا ونعيمها الزّائل والطّلاق من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وذلك حينما خيّرهنّ الحقّ جلّ وعلا في الآيتين الكريمتين الثّامنة والعشرين والتّاسعة والعشرين من سورة الأحزاب المدنيّة الكريمة . وها هي ذي عائشة وحفصة رضوان الله تعالى عليهما تقول كلٌّ منهما بحضرة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وحضرة أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما : والله لا نسأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شيئاً أبداً ليس عنده . ثمّ اعتزلهنّ شهراً

أو تسعاً وعشرين . ثمّ نَزَلت عليه آيتا التّخيير من سورة الأحزاب[1]

وإن تتظاهرا عليه وتتعاونا يا عائشة ويا حفصة فإنّ الله تعالى هو ناصره ، وجبريل عليه السّلام ، وصالح المؤمنين كأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . والملائكة وراء ذلك أعوانٌ له صلّى الله عليه وسلّم ونُصَراء .

عسى ربّه جلّ وعلا ، إن طلّقكنّ النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وسلّم ، أن يبدله ويعوّضه أزواجاً خيراً منكنّ وأفضل ، مسلماتٍ لله تعالى ربّ العالمين ، مؤمناتٍ قد طبّقن كلّ أركان الإيمان ، مطيعات لله تعالى ، تائباتٍ إلى الله تعالى راجعاتٍ إليه بالتّوبة النَّصُوح ، عابداتٍ لله تعالى خاضعاتٍ خاشعاتٍ متذلّلات ، صائماتٍ أو سائحاتٍ ذهنيّاً ومعنويّاً بالتّفكّر في ملكوت الله تعالى ، أو سائحاتٍ حسّيّا حين السّير في الأرض بالنّظر والتّدبّر ، ثيّبات قد تزوّجن من ذي قبل ، وأبكاراً لم يتزوّجن من ذي قبل .

وثَمَّة لطيفةٌ يمكن الإيماء إليها وهي أنّ نساء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كنّ حزبين ، عائشة وسَوْدَة وحفصة وصفيّة في حزب ، وزينب بنت جحش وأمّ سَلَمة والباقيات في حزب[1] رضي الله تعالى عنهنّ وأرضاهنّ وجعل الجنّة مثواهنّ .

---

(١) صحيح مسلم ١١٠٥ حديث رقم ١٤٧٨ .

(٢) فتح الباري ٩/ ٣٧٦ .

(٢)

((يوم القيامة لا يُخْزِي الله تعالى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين ، وعذاب الكافرين والمنافقين شديد))

الآيتان (٦-٩)

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾

قوا أنفسكم : احفظوا أنفسكم ممّا يؤذيها ويضرّها . والوقاية حفظ الشّيء ممّا يؤذيه ويضرّه[١] .

وأهليكم : أهل الرّجل من يجمعه وإيّاهم نسبٌ أو دِينٌ أو ما يجري مجراهما . وعُبِّر بأهل الرّجل عن امرأته . وأهل الإسلام الدِّينُ يجمعهم . وجمع الأهل أهلون[٢] .

وقودها : حطبها الّذين يوقد على هذه النّار[٣] .

النّاس : بنو آدم[٤] الكفّار[٥] .

والحجارة : قيل المراد بذلك الأصنام الّتي كانت تُعْبَد لقوله[٦] : ﴿ إنّكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنّم ﴾ [٧]

عليها ملائكة : خزنتها عدّتهم تسعة عشر[٨] جاء في سورة المدّثّر[٩] قوله تعالى : ﴿عليها تسعة عشر ﴾

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : "وقى" ٢/ ٦٨٨ .
(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : "أهل" ١/ ٣٧ .
(٣) تفسير الطّبري ٢٨/ ١٠٧ .
(٤) تفسير الطّبري ٢٨/ ١٠٧ .
(٥) الجلالين .
(٦) سورة الأنبياء ٩٨ .
(٧) تفسير ابن كثير ٨/ ١٩٥ .
(٨) الجلالين .
(٩) الآية ٣٠ .

غلاظ : أي طباعهم غليظة ، قد نُزِعت من قلوبهم الرّحمة بالكافرين بالله[1]

شداد : في البطش[2] أي تركيبهم في غاية الشِّدّة والكثافة والمنظر المزعج[3]

يا أيّها الّذين آمنوا احفظوا أنفسكم وأهليكم واحموها ناراً حطبها الكافرون والأصنام المنحوتة من الحجارة ، ومن باب الأحرى ما يقلّ عن الحجارة مقاومةً للنّار . على نار جهنّم خزنتها التّسعة عشر مَلَكا . وهؤلاء الملائكة الخزنة غلاظ الطّباع والقلوب والأكباد ، لا تهتدي الرّحمة إلى قلوبهم سبيلاً بحقّ الكفّار ، وهم شدادٌ في البطش بالكافرين أقوياء في التّنكيل بهم . وهم لا يعصون الله تعالى ما أمرهم بل يطيعونه عزّ وجلّ ، لأنّهم مفردو الإرادة لا يعرفون غير الطّاعة ، ويفعلون ما يأمرهم الله تعالى بفعله .

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ١٩٥ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير ابن كثير ٨/ ١٩٥ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧

يا أيّها الّذين كفروا بالله تعالى وبرسوله صلّى الله عليه وسلّم لا تعتذروا اليوم عن قبح اعتقادكم وسوء عملكم في الحياة الدّنيا . إنّما تُجْزَوْن يوم القيامة عقاب ما كنتم تعملون من سيّئات في الحياة الدّنيا .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَـٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾

توبةً نصوحاً : صادقةً جازمة[١] ناصحة[٢]

عسى ربّكم : ترجية تقع[٣] .

يوم لا يخزى الله النّبيّ والّذين آمنوا معه : يوم لا يُخْجِل الله تعالى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والّذين آمنوا معه ولا يفضحهم ولا يُذِلُّهُمْ[٤]

يا أيّها الّذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله محمّد صلّى الله عليه وسلّم توبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً صادقةً جازمةً مخلصة . قال العلماء : التّوبة واجبةٌ من كلّ ذنب . فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلّق بحقّ آدميّ فلها ثلاثة شروط : أحدها أن يُقْلِع عن المعصية . والثّاني أن يَنْدَمَ على فِعْلِها . والثّالث أن يَعْزِمَ أن لا يعود إليها أبداً . فإن فُقِدَ أَحَدُ الثّلاثة لم تصحّ توبته . وإن كانت المعصية تتعلّق بآدميّ فشروطها أربعة . هذه الثّلاثة وأن يَبْرَأَ من حقّ صاحبها . فإن كانت مالاً أو نحوه ردّه إليه . وإن كان

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ١٩٥ .

(٢) تفسير الطّبري ٢٨/ ١٠٨ .

(٣) الجلالين .

(٤) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : "خزى" ١/ ١٩٥ والمعجم الوسيط "خزي" .

حَدَّ قَذْفٍ ونحوه مكّنه منه أو طلب عفوه . وإن كانت غِيبَةً استحلّه منها[1] .

عسى ربّكم أيّها المؤمنون أن يكفّر ويَمْحُوَ عنكم سيّئاتكم ويُسْقِطَها عنكم ، وأن يدخلكم جنّات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار ، يوم لا يُخزى الله تعالى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والّذين آمنوا معه ، بل يكرمهم ويرفع عالياً رءوسهم . نور المؤمنين بقيادة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم يَسْعَى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون يا ربّنا أتمم لنا نورنا حتّى ندخل الجنّة ، واغفر لنا ذنوبنا ، وكفّر عنّا سيّئاتنا ، واستر سوءاتنا ، وآمن رَوْعاتِنا ، إنّك على كلّ شيءٍ قدير ، وبالإجابة جدير ، سبحانك .

---

(١) رياض الصّالحين ١٠ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩

يا أيّها النّبيّ الكريم والرّسول العظيم جاهد الكفّار بالسّيف والسّنان ، والمنافقين بالحجّة واللّسان ، واغلظ عليهم ، واشدد وطأتك عليهم . ومأوى الكافرين والمنافقين ومثواهم جهنّم . وبئس المصير والمآل جهنّم .

(٣)

((لا ينفع الكافرين يوم القيامة مُعاشَرَةُ المؤمنين لهم في الدّنيا ، ولا يضرّ المؤمنين مُعَاشَرةُ الكافرين لهم))

الآيتان (١٠-١٢)

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا
لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ
عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا
مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾

فخانتاهما : قال ابن عبّاس : كانت امرأة نوح تقول للنّاس إنّه مجنون . وكانت امرأة لوط تدلّ على الضّيف[1] .

فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً : لم ينفع نوحٌ ولوطٌ عليهما السّلام زوجتيهما ولم يدفعا عنهما عذاب الله تعالى[2]

ضَرَبَ الله تعالى مثلاً للّذين كفروا امرأة نوحٍ ولوطٍ عليهما السّلام في عدم انتفاع الكافرين بقربهم من رسل الله تعالى نسباً وصِهْراً . لقد كانت الزّوجتان تحت عَبْدَيْن من عباد الله تعالى صالِحَيْن ، فهما نبيّان كريمان ورسولان عظيمان[3] فخانتاهما في الإيمان وكفرتا بالله تعالى ، فلم يغنيا عنهما من الله تعالى شيئاً ، ولم يدفعا عن زوجتيهما من عذاب الله تعالى شيئاً ، وقيل لهما يوم القيامة ادخلا نار جهنّم مع الدّاخلين الكافرين . وجاء القول في صيغة الزّمن الماضي : ﴿ وقيل ادخلا النّار ﴾ لتحقّق وقوعه .

---

(١) تفسير الطّبري ٢٨/ ١٠٩ .
(٢) انظر تفسير الطّبري ٢٨/ ١٠٩ والجلالين وتفسير ابن كثير ٨/ ١٩٨ .
(٣) تفسير ابن كثير ٨/ ١٩٨ .

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

وضَرَب الله مثلاً للّذين آمنوا : وهذا مثلّ ضربه الله للمؤمنين أنّهم لا تضرّهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم[١] .

ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنّة : قال العلماء : اختارت الجار قبل الدّار[٢] .

ونَجّني من فرعون وعمله : أي خلّصني منه فإنّي أبرأ من عمله[٣] .

أحصنت فرجها : حفظته وصانته[٤] .

وصدّقت بكلمات ربّها : شرائعه[٥] .

وكتبه : التّوراة والإنجيل[٦] .

في مقابل المَثَل السّابق في عدم انتفاع المرأتين الكافرتين بصحبة الزّوجين الصّالحين بل النّبيَّيْن ، يأتي المَثَل الّذي يبيّن أنّه لا ضرر بإذن الله تعالى من صحبة المؤمنين للكافرين إذا كان المؤمنون محتاجين لمخالطة الكافرين .

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ١٩٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ١٩٩ .
(٣) تفسير ابن كثير ٨/ ١٩٩ .
(٤) تفسير ابن كثير ٨/ ٢٠٠ .
(٥) الجلالين .
(٦) تفسير الطّبري ٢٨/ ١١٠ .

وضَرَبَ الله تعالى مثلاً للّذين آمنوا امرأة فرعون طاغية مصر وكلّ زمان ومكان حين دعت ربّها عزّ وجلّ وقالت من أعماقها : يا ربّ ابن لي عندك يوم القيامة بيتاً في الجنّة ، ونجّني في هذه الحياة الدّنيا من فرعون الّذي يسوم الخَسْفَ كلّ من آمن برسولك موسى عليه السّلام ، ونجّني من القوم الظّالمين والملأ من قوم فرعون الطّاغية .

وضَرَبَ الله تعالى كذلك مثلاً آخر للّذين آمنوا ، مريم ابنة عمران الّتي حَفِظَتْ فرجها وصانته فنفخنا فيه من روحنا بواسطة جبريل عليه السّلام الّذي نفخ في جَيْبِ دِرْعِها[1] فَحَمَلَتْ بالمسيح عيسى عليه السّلام بإذن الله تعالى . إنّ مريم ابنة عمران صدّقت بكلمات ربّها عزّ وجلّ وشرائعه ، وآمنت بكتبه ووحيه . وكانت من القانتين المطيعين لله تعالى .

---

(١) الدّرع : الثّوب . الجيب : فتحة الثّوب الّتي يُدْخِل الإنسان فيها رأسه حينما يلبس الثّوب . والجيب من الجَوْب بمعنى القطع والقصّ .

تعقيب

نودّ أن نشير في هيئة نقاطٍ إلى بعض الأمور المتعلّقة بالسّورة الكريمة :

١- سورة التّحريم من المدنيّ من القرآن الكريم الّذي نزل على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعد الهجرة[١] .

٢- عَدَدُ آيات السّورة الكريمة اثنتا عشرة آية . وعدد كلماتها مائتان وتسع كلمات. وعدد حروفها ألفٌ وستّون حرفاً[٢] .

٣- بشأن قول الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة الثّانية : ﴿قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم﴾ قال قومٌ من أهل العلم : هذه إشارة إلى تكفير التّحريم . وقال آخرون : هي إشارةٌ إلى تكفير اليمين المقترنة بالتّحريم[٣] قال أبو بكر الصّدّيق وعمر الفاروق وابن مسعود وابن عبّاس وعائشة وابن المسيِّب وعطاء وطاووس وسليمان بن يسار وابن جبير وقتادة وأبو ثور والأوزاعي والحسن وجماعة : التّحريم يلزم فيه تكفير يمينٍ بالله . والتّحلّة إنّما هي من جهة التّحريم ، ولم يقل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : والله لا أطؤها[٤] .

٤- يصحّ أن يقال إنّ المحور الّذي تدور حوله السّورة الكريمة وتنطلق منه العناية السّماويّة ببيت النّبوّة وبالأسرة النبويّة ، ومن هذا البيت الطّاهر والأسرة الكريمة

---

(١) الإتقان ١/ ٤٣ والجلالين وتفسير ابن كثير ٨/ ١٨٥ وفي ظلال القرآن ٣٦٠٨ وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢٨/ ٩٦ وتفسير القرطبي ٦٦٥٦ والمحرّر الوجيز ١٦/ ٤٦ والبحر المحيط ٨/ ٢٨٨ .

(٢) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢٨/ ٩٦ .

(٣) المحرّر الوجيز ١٦/ ٤٩ .

(٤) المحرّر الوجيز ١٦/ ٤٨ .

تمّ الانتقال إلى بيوت المؤمنين ، لأنّ تلك البيوت اللّبنات الّتي تتألّف منها الجماعة المسلمة فالأمّة الإسلاميّة . ولمّا كان الصّراع أزليّاً بين الخير والشّرّ كان ثمّة أمرٌ للأمّة الإسلاميّة ممثّلةً في شخص الرّسول الكريم بأن تجاهد الكافرين بالسّيف والسّنان ، والمنافقين بالحجّة واللّسان . ويضاف إلى خِزْيِ الدّنيا عذاب الآخرة إن لم يؤمنوا ويتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً ويعملوا صالحاً .

وامتداداً لِلْعِنايَةِ السّماويّة باللّبنات الأُوَل ، أعني البيوت ، كان في نهاية السّورة الكريمة ضَرْبٌ لمثلين اثنين متعلّقين ببعض البيوت . وأحد المثلين يبيّن للخارجين عن الصّراط المستقيم ، انتهاءً بالكفر ، أنّ الكافرين لا ينفعهم يوم القيامة معاشرة المؤمنين لهم ، ولو كانوا نبيّين مثل نوحٍ ولوطٍ عليهما السّلام . وإنّ النّصّ على هذين الرّسولين الكريمين والنّبيّين العظيمين يقذف إلى الذّهن توّاً احتفاء السّورة الكريمة في صدرها ببيت النّبوّة ، وبالرّسول الكريم ، والنّبيّ العظيم محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم ، إلى حدّ النّصّ على أنّ الله تعالى هو مولى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إن تتعاون عليه صلّى الله عليه وسلّم زوجتاه اللّتان وجّه إليهما في السّورة الكريمة عتابٌ كبيرٌ على موقفهما المرغوب عنه في حقّه صلّى الله عليه وسلّم . يضاف إلى ذلك نُصْرَة جبريل عليه السّلام والملائكة الأطهار وصالح المؤمنين له عليه الصّلاة والسّلام . وآخر المثلين يبيّن للمؤمنين أنّهم لا يضرّهم في الآخرة معاشرة الكافرين لهم اضطراراً في الحياة الدّنيا .

ولا يكاد العجب ينتهي من رباط الثّنائيّة النّسائيّة بين صدر السّورة الكريمة وعَجُزِها. إنّ حديث أحد المثلين عن الزّوجتين الكافرتين للنّبيّين العظيمين والرّسولين الكريمين نوحٍ ولوطٍ عليهم الصّلاة والسّلام ، وحديث آخر المثلين عن المرأتين المؤمنتين،

امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران والدة عيسى عليه السّلام يَقْذِفُ إلى الذّهن بالمرأتين المؤمنتين محور حديث صدر السّورة الكريمة ، وهما عائشة وحفصة رضي الله تعالى عنهما ، زوجتا المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ، ومحطّتا العِتاب الشّديد في صدر السّورة الكريمة . وهكذا تتجلّى الوحدة العضويّة للسّورة الكريمة وأخذ بعض أجزائها بحُجَز بعض .

وصلّى الله عليه وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله ربّ العالمين .

مكّة المكرّمة

مساء يوم الأربعاء ٥/ ١١/ ١٤٢٣هـ

الموافق ٨/ ١/ ٢٠٠٣م .